

سينمائي كرّس عدسته للشعر والشعراء

نصري حجاج: على السينما أن تقتدي بالشعر وتهتدي به



يمكنك أن تضحي بكل شيء من أجل تصوير الفيلم



درويش رمز وليس مجرد شاعر عابر



من فيلم "ظل الغياب"

كان يحبه درويش هو "يوم نسائي"، كما كان يردد دائما. وكما قدمت محمود درويش بصوت أصداقته من الكتاب والشعراء العالميين، فقد قدمت هبة القواس قصائده بالعزف على البيانو، كما قدمه ذلك الأيك بحركاته الدقيقة والعميقة. ولاحظ أن هبة القواس كانت تعزف وأمامها قصيدة "لاعب النرد" بخط يد درويش بدل الجمل الموسيقية، وهي إنما ارتجلت تلك الموسيقى حينها، ولم يكن الأمر مرتبطا بموسيقى تصويرية.

■ **الجديد:** ما نحن ننصت مرة أخرى للموسيقى، بينما نتحدث عن القضية، وننصت للشعر بينما نحاول فهمها، أو مشاهدة صور تعبر عنها من خلال السينما.

● **نصري حجاج:** صحيح، ونحن في العالم العربي، وفي أقاصي أفريقيا وأميركا الجنوبية، مثلا، لا يمكن أن نتحضر ما لم نُؤمن بقيمة الحياة، كما نتعلمها من كبار المعلمين والمبدعين، في الشعر والموسيقى والسينما، ومن أمهاتنا وأطفالنا، في إصرارهم على الحياة.

مثملا فعل مع مارسيل خليفة أيضا. وسبب استبعادنا ألة العود كونها ألة شرقية بامتياز، وأنا ما كنت أريد أن يحس المتلقي، عبر العالم، خاصة بالشسبة إلى من لا يعرف درويش جيدا، أنه بصدد شاعر إقليمي.

لم أكن أريد أن أعطيهم الانطباع بأن درويش شاعر عربي وشرقي فحسب، بل شاعر كوني وعالمي، وكذلك كان وهكذا سيقين. كما هو شأن البيانو بوصفه ألة موسيقية كونية. فغالبا ما نجد العازفين على العود ذكورا فقط، بينما نجد البيانو ألة عزف عليها الرجال، كما برعت في العزف عليها مبدعات عالميات. أما العود الفلاني (يقطر من أصابع العازفة اللبنانية هبة القواس). مخرجة فلسطينية تابعت معنا عرض الفيلم في تطوان، سألناها عن سر هذا البيانو فقالت: إنه رمز الأثوة والحياة. هل تحمل نفس القراءة والتأويل؟

● **توصيف جميل وصائب جدا، والعزف على البيانو هو بالتأكيد رمز الأثوة والحياة. وأنا استبعدت العود، رغم أن الإخوة جبران في العزف على العود.**

فقدت الساحة الثقافية الفلسطينية والعربية في سبتمبر الماضي الكاتب والسينمائي نصري حجاج، الذي يعتبر من أبرز أعماله فيلم "ظل الغياب" الذي تناول ثيمة الموت والمنفى الفلسطيني، وفيلم "كما قال الشاعر" الذي وثق فيه حياة الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش. تجربة حجاج لم تتوقف عند حدود المنجز بل تمدت إلى تأثيره في الحركة الثقافية ومغامرته الفنية التي لا تتوقف عند حد، فالإبداع عنده حياة ومغامرة قبل كل شيء. في ما يلي حوار سابق مع الراحل نكتشف فيه بعض خفاياه ورؤاه للسينما والشعر والحياة.

في لبنان، غداة الحرب الأهلية، سوف يُحرم شهداء فلسطينيون ينتمون إلى الحزب الاجتماعي القومي السوري من الدفن في المقابر. مثلما منع شهداء فلسطينيون آخرون من مقابر تويهم في صيدا، بعد استشهادهم... ولعل هذا ما جعل من فيلمي الوثائقي الأول فيلما جنائزيا، على حد تعبيرك. صحيح أن فيلم "كما قال الشاعر" هو فيلم عن محمود درويش، لكن استحضار شعر درويش في فيلم "ظل الغياب"، كما ذكرت، دليل على أن درويش رمز أيضا، وليس مجرد شاعر عابر. رمز القضية، رمز الهوية، أيضا، ورمز الشعرية أساسا.

ربما كان الهدف في مشروع السينمائي هو منح السينما نفسا شعريا، ما دام الشعر أعمق أشكال البوح الإنساني، وأسمى تعبيراته الفنية. وعلى السينما أن تقتدي بالشعر وتهتدي به، كما فعلت الرواية من قبل، وكما تفعل الفنون الأخرى من رسم وموسيقى. وعليها أن ننتبه، ونحن نستحضر صديقا الراحل محمود درويش، وشعراء آخرين وشاعرات، من أمثال سميج القاسم وتوفيق زياد وفدوى طوقان وأحمد دحبور وعزالدين المناصرة ومعين سيسيسو... أن القضية الفلسطينية قضية شعرية أولا.

■ **الجديد:** يذكرني تصورك بعبارة للفنان والشاعر والمخرج الفرنسي جان كوكوتو، حين يصرح بأن "السينما رسم بالشعر". وهو هنا يجمع بين الثلاثة فنون: الشعر والرسم والسينما. هل يمكن أن تكون هناك لوحة أو سينما دون شعر؟

● **ربما يجب علينا أن نبدأ بالرواية أولا. وهي لن تكون رواية إذا ما افتقدت لروح الشعر. ستظل مجرد سرد لوقائع وأحداث قد تجري في أي مكان، وهي تحدث باستمرار في حياتنا اليومية، وعبر التاريخ.**

لكن، لا يمكن أن تتحول حياة جميع الناس إلى فيلم سينمائي، أو إلى فيلم وثائقي. بخلاف سيرة درويش، وسير شعراء آخرين، عرب وعالميين، يمكن أن نرفعها إلى ضوء السينما لأنها جديرة بأن تحكى، وأن يتم تصويرها، بما أوتيت من شعرية، وبالنظر إلى المسار التراجيدي الذي خاضته في مواجهة الأقدار والأخطار المحدقة بها.

■ **الجديد:** أنت أيضا خضت مسارات واجتزت مفازات كثيرة في سبيل إعداد الفيلم الوثائقي "كما قال الشاعر"، عن الراحل محمود درويش. وهنا، يبع المخرج نفسه بطلا تراجيديا يخوض مهمة إنجاز الفيلم وإنتاج تعددا في الأصوات والرؤى؟

● **نعم، فمديرة التصوير جوسلين أبي جرار، وهي لبنانية، قامت بالتصوير في كل البلدان التي استطاعت أن تسافر معي إليها. وهي التي كانت تدبر التصوير والكاميرا. أما في فلسطين، مثلا، فلم يكن ممكنا لها أن تذهب إلى هنالك، لأنها لبنانية ولا تحمل الجنسية الفلسطينية. وفي لانتاروتى، لم تتوفر لها الفيزا الإسبانية، وأنا كنت قد حسمت موعدا مع ساراماغو، وهو موعد لا رجعة فيه طبعاً، وهنا، اتصلت بسكرتيره الذي دلني على مصور محترف يتكفل بتصوير كل ما هو خاص بالكاتب البرتغالي الشهير.**

■ **الجديد:** كيف جاءت فكرة الاشتغال على هذا المشروع الوثائقي من البداية؟

● **قبل أن أتمكن من ضمان تمويل لهذا العمل السينمائي، كنت شرعت في التصوير وأنا أعبر من بيروت إلى الأردن**

مخلص الصغير
كاتب مغربي

● قبل عشر سنوات، كان لقائي الأول بالمخرج والكاتب الفلسطيني الراحل نصري حجاج، الذي غادرننا الشهر الماضي، حين غدر به الموت، وفرق بيننا وبينه وبين أصدقائه ومشاهدي أفلامه، ومحبي كتاباته الصادقة والصارخة. التقيته، يومها، في مهرجان تطوان السينمائي الدولي رفقة الممثلة العالمية كلاوديا كاردينالي والمخرج المصري داود عبد السيد والناقد السينمائي الفرنسي الشهير سيرج توبيانا، مدير "دفاتر السينما" العريقة، وكذا المؤرخ الفرنسي روني غاليسو، والممثل المصري الراحل محمود عبدالعزیز، وآخرين وأخرى. أجريت حوارات ولقاءات، وربطت علاقات وصداقات مع هؤلاء وأولئك، في السينما والثقافة والسياسة والحياة، بينما كان نصري رفيقي في شوارع المدينة وأزقتها ودروبها العسجة في قاعاتها السينمائية العسجة وفضاءاتها الفنية الخلاقة. كان المشارك الوحيد الذي تقاسم معي أكثر من هاجس، في السينما والشعر والصحافة، والكثير من الانشغال بالسياسة، فكان هذا الحوار الخاص.

■ **المخرج كان يرى أن العالم العربي وأقاصي أفريقيا وأميركا الجنوبية يمكن أن تتحرر إذا أمنت شعوبها بقيمة الحياة**

والحال أن نصري كان مشاركا في الدورة السادسة عشرة للمهرجان بفيلم "كما قال الشاعر" عن الشاعر محمود درويش. خضنا في الفنون والأفلام والأشعار، وفي سائق اليسار، في القضايا العربية المطروحة، والقضية الفلسطينية. حينها بادرت بالسؤال: هل هي حقا قضية فلسطينية أم قضية عربية وكونية، فكان جوابه أنها قضية شعرية. من هنا، انطلق الحوار بيننا، وقد نشرت جزءا منه في "يومية مهرجان تطوان"، التي كنت أشرف عليها في ذلك الوقت. وها أنا أحرر الحوار كاملا، وأخص به "الجديد" لينشر كاملا للمرة الأولى كتحية لنصري حجاج وإشارة، ليس إلا، إلى أنه باق بيننا.

■ **الشعر والسينما**

■ **الجديد:** قريبا من جدار الفصل، ينطلق فيلم الوثائقي الأول "ظل الغياب" بمقطع من شعر درويش، في مشهد جنائزي مؤثر، كما أن عنوان الفيلم هو نفسه استعارة درويشية صريحة. واليوم، تخصص فيلما وثائقيا خاصا بدرويش. لكن الفيلمين معا ينطلقان من فضاء المقبرة، وبينعتان من رمد الموت. ما سر ذلك؟

● **لعل المقبرة هي الصورة السينمائية والشعرية التراجيدية والفجائية في تجربتي، عبر السينما والحياة. وهي صورة تلخص المشهد الفلسطيني منذ ما يزيد عن نصف قرن.**

لعل سيرة فلسطين هي سيرتي، حيث ولدت المناساة الجماعية والفردية في وقت واحد. إذ لا يصعب الحديث عن سيرة شخصية للإنسان العربي المعاصر، إذ قبض لها أن تكون جزءا من سيرة جماعية وملحمة عربية مؤلمة. لقد فتحت عيني في مخيم عن حلوة، هنالك حيث ولدت، بداية الخمسينات، على مشاهد القتل والدفن، والترحم على الشهداء في حضرة القبور. وعندما كنت

■ **كان الهدف في مشروع حجاج السينمائي هو منح السينما نفسا شعريا، ما دام الشعر أعمق أشكال البوح الإنساني**